حياة عاصفة

من الناس من ينظر إلى الدنيا فى ضوء مثل أعلى يتمثله أو فى ظل فكرة سامية يحلم بها ، وتلهمه الرؤى الرائعة والصور البديعة ، فيصبح لا يطيق ما يرى فى الواقع من نقص وعيب ، ويسوؤه ما فى الحياة من إثم ومنكر وظلم فادح وتجبر وطغيان وفساد وفوضى وضعة ومهانة ، ويحز ذلك فى نفسه ويؤرق ليله ، ويقض مضجعه ، ويأخذ عليه مسالك تفكيره ؛ فإذا كان من تجول بنفسه أمثال هذه الأفكار وتضطرب فيها أمثال هذه المشاعر رجلاً عالى الهمة بعيد الشأو صارم الإرادة استولت عليه رغبة حافزة فى مقاومة الضلالات الفاشية ومحاربتها والقضاء عليها ، وتحقيق ما يتراءى له من وجوه الخير والإصلاح .

ومثل هذه الرغبة النبيلة كانت هى الدافع فى الماضى إلى تصور الجمهوريات الصالحة العادلة ، والمدن السامية الفاضلة ، وكانت باعث الثورات والانقلابات والحركات والاضطرابات التى كثيراً ما باءت بالإخفاق وابتلى القائمون بها بأشد ضروب البلاء ؛ ومثل هذه الرغبة فى العصر الحديث كانت هى التى تثير رواد المذاهب الاشتراكية ودعاة الفوضوية والسنديكالية وما إلى ذلك من المذاهب السياسية والاجتماعية التى تهدف إلى إبراء المجتمع من أسقامه ، وتصحيح أخطائه ، وإزالة عيوبه ، وترميمه وسد ثغراته .

والكثرة الغالبة من الناس يقبلون اليسير ، ويرضون بالدون ، وتشغلهم صغائر الحياة وهمومها الحقيرة عن تأمل الأحوال التى يعيشون فيها ، ومراقبة الاتجاهات السائدة فى المجتمع الذى يحتويهم ، ولا تترامى آمالهم إلى أبعد مما

يتطلبه حاضرهم الضيق المحدود ، والواقع أننا لا نعدو الحق إذا قلنا إن حياتهم تشبه حياة السوائم من وجوه عدة ، وبعض هؤلاء الناس قد يحدوهم الطموح الشخصى إلى شق الصفوف ومقارعة الأقران ، واكتساح العقبات القائمة فى سبيلهم حتى يصلوا إلى صفوف العلية ، ولكن القليلين من أمثال هؤلاء من يعمل على إشراك الجماعات فى المزايا أو المنافع التى يريدها لنفسه ، ويحاول أن يقصرها عليها ، وقلة قليلة نادرة من الناس هم الذين يسعون للخير العام والإصلاح الشامل دون أن يفكروا فى علاقة ذلك بمصلحتهم الخاصة أو سعادتهم الفردية .

وفى العهود الغابرة كثيراً ما أخفق أمثال هؤلاء الأفراد النوادر فى إثارة الاهتمام بقضيتهم ، لأن الجهل والفقر كانا أكبر عقبة فى سبيلهم ، وإيقاظ الأمل فى نفوس الجهلة والفقراء كان من المسائل الشاقة التى تكاد تبعث على اليأس .

أما فى العصر الحديث فإن انتشار التعليم على مدى واسع جعل مهمة هؤلاء الأفراد الأفذاذ أجدى وأبعد أثراً ونسبياً أقل خطراً .

وتتشابه الاشتراكية والفوضوية فى أنهما يليحان للعالم الذى نعيش فيه بمثل أعلى وصورة مثلى ، وأمثال هذه الصورة السامية كانت من وحى مفكرين مثاليين قضوا حياتهم فى عزلة وتفكير وتأمل ، ولكن جماعات العمال الكادحين قبلوا هذه الصور الجميلة ، وتعلقوا بها ، وعملوا على تحقيقها ، وقد رزقت الاشتراكية الذيوع والانتشار واكتسبت الكثير من الأنصار والأعوان ، أما الفوضوية فلم تلق انتشاراً واسعاً إلا حينما أخذت صورة السنديكالية النقابية . والاشتراكية والفوضوية فى صورتهما الحديثة قد تأثرتا بمجهود رجلين بارزين ممتازين ، وهما كارل ماركس وباكونين ، وقد عاش هذان الرجلان فى جهاد

متواصل وكفاح مرير ، فماركس من بعض الوجوه يمكن أن يعتبر موجد الاشتراكية الحديثة ، لأنه أفرغها فى القالب الذى عرفت به ، وأعطاها الصورة العلمية ، وأيدها بالشواهد المستمدة من التاريخ والفلسفة والاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع .

وباكونين هو بحق إمام الفوضوية الحديثة الذى قاد حركتها وأوقد شعلتها ، ولكن باكونين لم يكن ندا لماركس فى سعة الاطلاع ، وغزارة المعلومات ، والقدرة على تنظيم الأفكار وتحديدها ، وإجادة التأليف واستيفاء بحث النظريات والتعاليم ، وربما كان أقدر زعماء الفوضوية على ذلك هو الأمير كروبتكين المفكر المعروف .

وقد ولد ميشيل باكونين فى سنة ١٨١٤ من أسرة روسية أرستقراطية ، وكان والده من رجال السلك السياسى ، وكان أبوه حين مولده قد اعتزل الخدمة وأقام فى ضيعة له فى ناحية تيفر ، وقد أراد أن يهيىء لابنه حياة وطنية محترمة فى الجيش القيصرى ، ولكن الفتى الناشىء باكونين كان ثائراً مطبوعاً ، وقد حمل علم الثورة أول ما حمل فى داخل منزل أسرته ، وتحدى سلطة أبيه ، وكانت حياته العائلية الباكرة حافلة بالأحداث الثورية ، وكان يحرض إخوته على الثورة وشق عصا الطاعة ، ولم يكن أبوه من الآباء الطغاة المستبدين ، وإنما كان رجلا ذكى الفؤاد مستنيراً سهلا متسامحاً مع أولاده ، وقد استهدف مع ذلك كله لحملات هذا الابن المتمرد .

ولم يكن باكونين مع ذلك يجهل الجوانب الصالحة فى أخلاق أبيه ، فقد كتب إليه من رسالة « لقد كنت معلمنا ، وقد أيقظت فى نفوسنا الشعور بالخير والجمال وحب الطبيعة ، ونبهت فى أفئدتنا هذا الحب الذى ما يزال يربط بين قلوبنا إخوة وأخوات برباط وثيق ، ولولاك لكنا قد اصبحنا قوماً عاديين

تافهين ، وقد أشعلت فى نفوسنا شرارة حب الحق المقدسة وأنميت فينا الشعور بالاستقلال المترفع والحرية الشامخة ؛ وقد فعلت ذلك لأنك تحبنا ولأننا متعلقون بك مؤثرون لك » .

وقد أحسن أبوه تنشئة أولاده بوجه عام ، وكانت طفولتهم سعيدة هانئة ، وألحق باكونين بمدرسة المدفعية ببطرسبرج ، وأقبل على دروسه الحربية بحماسة وجلد ، وشاهد إخماد الثورة البولندية فى سنة ١٨٣٠ ، فأثر فى نفسه منظر بولندة الثائرة المرعوبة تأثيراً شديداً قوى فى نفسه كراهة الظلم والطغيان ، وضاق بعد ذلك بحياة الجندية ، وترك خدمة الحكومة القيصرية ، وأقبل على دراسة الفلسفة وأعجب بفلسفة هجل ، وكانت حينذاك هى الفلسفة السائدة فى الأندية الفكرية والبيئات المثقفة . ثم غادر روسيا وذهب إلى ألمانيا ليدرس فلسفة هجل فى منبتها القومى ، وقد ترك روسيا وهو من رعايا القيصر المخلصين ، ولكن سرعان ما وقع تحت تأثير الهيجليين ، ومال إلى آرائهم الثائرة لأنها صادفت هوى فى نفسه . ثم ساوره الشك فى بعض آراء هجل ونظراته ، ولم يستطيع قبول قول هجل إن الواقع هو المعقول والمعقول هو الواقع ، ثم ترك برلين إلى درسدن واتصل بأرنولد ريج وكان ريج حينذاك يحاول أن يفسر فلسفة هجل تفسيراً يلائم الاتجاهات الحرة ، وكان من المؤمنين بقوة تأثير الأفكار فى عالم السياسة والاجتماع ، وفى ذلك الوقت أصبح باكونين من الذين يدينون بالمبادىء الثورية ، ونشر مقالا فى المجلة التى كان يصدرها ريج وردت فيه إحدى كلماته المأثورة وهى قوله « إن الرغبة فى الهدم هى فى الوقت نفسه رغبة خالقة » وقد اتخذ خصومه الناقمون عليه هذه الكلمة وسيلة لتصويره فى صورة الرجل الثائر الهدام الذى يريد العنف للعنف ، وهو فى الواقع لم يكن كذلك ، وإنما كان يرى أن بناء الجديد يستلزم قبل ذلك هدم القديم .

ولم يكن باكونين ميالا إلى الشدة والعنف بطبيعته ، والثورات العنيفة فى رأيه ضرورة غير سارة . ومن أقواله فى ذلك « الثورات الدامية فى الأغلب ضرورة لازمة ، وذلك بفضل الغباء البشرى ، ولكنها دائماً شر ، بل هى شر منكر وكارثة كبيرة ، وهى ليست كذلك بالقياس إلى ضحاياها ، وإنما بالقياس إلى سلامة الغرض الذى قامت من أجله الثورة واستيفائه » .

واستهدف بعد ذلك لعداوة حكومة سكسونيا ، فارتحل إلى سويسرة ، ولقى بها جماعة من الاشتراكيين الألمان ، وثقلت عليه وطأة الحكومة السويسرية ، وطالبت الحكومة الروسية بعودته ، فانتقل إلى باريس ، وظل هناك من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٨٤٧ . وكانت هذه السنوات من السنوات الهامة فى تكوين أفكاره وبناء فلسفته .

وقد عرف فى هذه الفترة الزعيم برودون ، وقد أثر فى نفسه تأثيراً بالغاً . ولقى الزعيمين الاشتراكيين الكبيرين ماركس وإنجلز . وقد نشبت بينه وبينهما معركة حامية ظلت معقودة الغبار إلى حين وفاته . وقد ذكر لنا باكونين ملخص علاقته بماركس فقال :

« كان ماركس يسبقنى كثيراً فى طريق التقدم ، كما ظل حتى اليوم ليس أسبق منى فى سبيل التقدم فحسب وإنما كذلك أغزر منى علماً إلى درجة تبطل معها الموازنة ، كنت حينذاك لا أعرف شيئاً فى الاقتصاد السياسى ، ولم أكن قد تخلصت بعد من التجريدات الميتافيزيقية ، ولم تكن اشتراكيتى سوى اشتراكية غريزية ، وكان هو بالرغم من أنه أصغر منى سنًّا قد سبقنى إلى الإلحاد وأصبح مادياً متمكناً واشتراكياً له وزنه وخطره . وفى ذلك الوقت وضع هو أساس مذهبه الحالى ، وكنا نتلاقى من الحين إلى الحين . لأنى كنت أحترمه كثيراً لعلمه وإخلاصه الشديد لمذهبه (بالرغم من أن هذا الإخلاص كان مشوباً بالغرور

الشخصى) ، وكنت أسعى باهتمام لاستماع حديثه ، وكان حديثه دائماً نافعاً بارعاً حينما كان لا توحيه الكراهية الحقيرة ، ومما يستوجب الأسف أن ذلك كان كثيراً ما يحدث ولكن لم تكن هناك علاقة وديه صريحة بيننا ، وكان مزاجانا لا يطيقان ذلك ، وكان هو يصفنى بأنى مثالى عاطفى ، وقد كان محقا فى ذلك ، وكنت أنا أصفه بأنه رجل مغرور ماكر خائن ، وكنت كذلك محقا فى ذلك » .

ولم يستطع باكونين أن يقيم فى أى مكان كان حيناً من الزمن دون أن يتعرض لعداوة السلطات الحاكمة ، ففى نوفمبر سنة ١٨٤٧ نفى من فرنسا استجابة لطلب المفوضية الروسية ، وكان ذلك لأنه ألقى خطبة مدح فيها ثورة البولنديين فى سنة ١٨٣٠ ، وأرادت المفوضية أن تكيد له وتبالغ فى تشوية سمعته ؛ وهدم مكانته ، وتزود خصومه بسلاح حاد فى محاربيه ، فأذاعت تلك الإشاعة التى لم يكن لها نصيب من الصحة ، وهى أن باكونين كان عينا للحكومة الروسية ولكنه أصبح غير مرغوب فيه لأنه تجاوز حدوده ، والتجأ باكونين إلى بروكسل ولقى هناك ماركس ، وازداد ما بينهما تباعداً .

وحدثت بعد ذلك ثورة سنة ١٨٤٨ فعاد باكونين إلى باريس ، ومنها ذهب إلى ألمانيا ، وأصبح عضواً فى المؤتمر السلافى الذى عقد فى براغ ، وحاول هناك أن يحدث ثورة سلافية ؛ وفى آخر سنة ١٨٤٨ أذاع بياناً دعا فيه السلافيين إلى الانضمام إلى غيرهم من الثائرين للقضاء على الحكومات الملكية الثلاث المستبدات وهى حكومة روسيا وحكومة النمسا وحكومة بروسيا ، واغتنم كارل ماركس الفرصة فهاجم باكونين قائلاً إن حركة الاستقلال فى بوهيميا غير مجدية لأن السلافيين لا مستقبل لهم ؛ وبخاصة فى الجهات التى يخضعون فيها لحكم الألمان أو لحكم النمساويين .

وقد اتهم باكونين ماركس بأنه متأثر فى ذلك بنزعة القومية الألمانية ، واتهمه

ماركس بتشيعه للنزعة السلافية ، والاتهام من الطرفين كان له ما يسوغه ، وقبل قيام هذا الخلاف بين هذين الزعيمين نشبت بينهما معركة أخطر شأنا ، فقد نشرت الجريدة التى كان يصدرها ماركس أن فى حيازة الكاتبة القديرة جورج ساند أوراقا ومستندات تثبت أن باكونين يعمل جاسوسا للحكومة الروسية ، وأنه أحد المسئولين عما وقع قريبا فى بولندة من الاعتقالات .

وقد أنكر باكونين هذه التهمة ، وأرسلت جورج ساند إلى الجريدة تنفى المسألة وتؤكد أنها باطلة من أساسها ، ونشر ماركس ردها ، وهدأت حدة الخلاف بعض الهدوء ، ولكن منذ إثارة هذه التهمة لم يصف الجو بين الزعيمين اللذين لم يتلاقيا بعد ذلك إلا فى سنة ١٨٦٤ .

وفى أثناء ذلك كانت الاتجاهات الرجعية تستعيد مكانتها وتسترد قوتها ، وفى سنة ١٨٤٩ قامت ثورة فى درسدن ، وأصبح الثائرون مسيطرين على المدينة ، وكان باكونين هو المشرف على الدفاع ومقاومة الجيوش البروسية المهاجمة للمدينة ، وغلبت المدينة على أمرها ، وقبض على باكونين وهو يحاول الفرار ، وبدأ يعرف السجون والمعتقلات فى بلاد كثيرة ومواطن شتى ، وقد حكم عليه بالإعدام فى ١٤ يناير سنة ١٨٥٠ ، وبعد خمسة أشهر استبدل بحكم الإعدام الأشغال الشاقة . وسلم للحكومة النمساوية التى أرادت أن يكون لها فخر معاقبته وتأديبه ، وحكم عليه النمسويون فى دورهم بالإعدام فى شهر مايو سنة ١٨٥١ واستبدل كذلك بحكم الإعدام الأشغال الشاقة للمرة الثانية ، ولقى فى السجون النمساوية معاملة قاسية ، فقد وضعت الأغلال فى يديه ورجليه . وكانت الحكومات كما يظهر تستشعر المتعة فى تعذيب هذا الرجل والتنكيل به . فبعد أن شفت الحكومة النمساوية غليلها منه طلبته الحكومة الروسية من حكومة النمسا . ووافقت على ذلك حكومة النمسا . وأسلمته لها ، فأرسل إلى حصن بطرس

وبولس . ثم أرسل بعد ذلك إلى شليسبرج . وهناك اصطلحت عليه العلل والأمراض فتساقطت أسنانه وهزل جسمه . ولكن هذه الآلام المبرحة لم تلن من عزمه ، ولم تقدح فى عقيدته ، ولم تغير من آرائه . وقد خرج من هذه المحنة وهو أقوى مايكون إيماناً بمذهبه . وقد صدر أمر بالعفو عن الكثيرين من المسجونين عقب موت القيصر نقولا الأول ، ولكن القيصر الجديد — وهو القيصر الإسكندر الثانى — أبى أن يشمل العفو هذا الثائر العنيد . ولما مثلت والدته بين يدى القيصر تلتمس العفو عن ولدها قال لها القيصر « إعلمى أيتها السيدة أن ابنك لن ينال حريته ما دام حياً » ومهما يكن من الأمر فإنه أرسل فى سنة ١٨٥٧ — بعد أن ظل معتقلا ثمانية أعوام — إلى سيبريا ، وهناك استطاع الهرب فى سنة ١٨٦١ إلى بلاد اليابان وانتقل من بلاد اليابان إلى أمريكا ومنها إلى لندن .

وقد تجرع باكونين مرارة السجن والاعتقال لكراهته الشديدة للحكومات . ولم تنجح الحكومات المختلفة التى عاقبته وأذاقته العذاب فى حمله على حب فكرة الحكومة والإشادة بها . ومنذ عودته إلى لندن وقف حياته على إذاعة روح العصيان والتمرد على الحكومات .

وعاش حيناً فى إيطاليا حيث أوجد جماعة « الأخوة الدولية » أو « اتحاد الثائرين الاشتراكيين » وقد قاومت هذه الجماعة نزعة القومية التى كان يؤيدها الزعيم الإيطالى العظيم متزينى . وانتقل باكونين من إيطاليا إلى سويسرة . وهناك كان من الساعين فى إيجاد « اتحاد « الاشتراكية الديموقراطية الدولى » وكان هذا الاتحاد يرى إلى إلغاء نظام الطبقات . ويقول بالمساواة بين الأفراد من الرجال والنساء وإبطال الملكية الخاصة .

وفى سنة ١٨٦٤ نشأ فى لندن اتحاد العمال الدولى . ووضع كارل ماركس

برنامجه . وأبى باكونين الانضمام إليه لاعتقاده أنه سيلقى الإخفاق . ولكنه – على خلاف ما قدر – انتشر بسرعة تسترعى النظر . وأصبح قوة هائلة فى إذاعة الأفكار الاشتراكية . وقد استطاع ماركس أن يضمه إلى صفه . وأدرك باكونين فى أثناء ذلك أهمية هذا الاتحاد . فصمم على الانضمام إليه . ودخل معه فى هذا الاتحاد عدد كبير من أتباعه فى فرنسا وسويسرة وإسبانيا وإيطاليا .

وفى سنة ١٨٦٩ عقد الاتحاد مؤتمره الرابع ، وظهر فى هذا المؤتمر تياران متعارضان ، فالأعضاء الألمان والإنجليز أيدوا كارل ماركس فى رأيه عن الدولة بعد إلغاء الملكية الخاصة ، وناصروا فكرته فى إيجاد أحزاب للعمال فى الأقطار المختلفة واستعمال النظام الديمقراطى لانتخاب أعضاء يمثلون العمال فى المجالس النيابية ، أما الأمم اللاتينية فقد أيد أعضاؤها باكونين فى مقاومته لفكرة الحكومة ، وكذلك فى الاستعانة بأداة الحكم النيابى ، واشتدت الخصومة بين الطرفين واستمرت الحرب بينهما ، وتبادل الفريقان التهم والشتائم ، وعاود الماركسيون اتهام باكونين بالتجسس للحكومة الروسية بعد أن لقى الرجل منها مالقى ، وشغل باكونين بإثارة ثورة فى روسيا خاصة بتوزيع الأرض ، وصرفه ذلك عن الالتفات إلى الصراع القائم فى المؤتمر الدولى .

ولما نشبت الحرب البروسية الفرنسية انضم باكونين إلى جانب فرنسا ، وبخاصة بعد سقوط نابليون الثالث ، وحاول أن يستنهض عزيمة الناس ويحرضهم على الثورة ، ولكنه لم ينجح ، واتهمته الحكومة الفرنسية بأنه جاسوس لبروسيا ولم يستطع الفرار إلى سويسرة إلا بصعوبة ، وازداد الخلاف بينه وبين الماركسيين حدة ، وقد كان باكونين يعتقد أن تزايد قوة ألمانيا خطر على الحرية لا يستهان به ، وكان يكره الألمان كراهة شديدة ، وكانت كراهته لبسمارك وكارل ماركس من الأسباب الباعثة على إشعال هذه الكراهة ، وقد تأثر

المذهب الفوضوى بهذه الكراهة فإلى اليوم يكاد يكون مقصورا على الأمم اللاتينية ، وقد اقترن على الدوام بكراهة المانيا .

وعقد المؤتمر الدولى العام فى لاهاى سنة ١٨٧٢ ، ويزعم أنصار باكونين أن اللجنة العامة اختارت عقد المؤتمر فى هذا المكان لعدم تمكين باكونين من حضوره لما بينه وبين الحكومتين الفرنسية والألمانية من خلاف ، وهزم أنصاره فى هذا المؤتمر ، وقضى المؤتمر بطرده موجها إليه طائفة من التهم بينها تهمة السرقة بالإكراه ، وقد زود ماركس المؤتمر بالمستندات المؤيدة لذلك تشفياً من خصمه باكونين ، وحرصاً على إبعاده من المؤتمر ليخلو له الجو .

وكانت صحة باكونين حينذاك قد اعتلت اعتلالا شديداً ، وتمكن منه المرض فعاش فى عزلة حتى وفاته فى سنة ١٨٧٦ ، وهكذا عاش باكونين حياة عاصفة ثائرة متحديا كل سلطة دون أن يفكر فى سلامته الشخصية ، وبالرغم من التهم الوضيعة التى وجهت إليه فإن تأثيره فى نفوس أنصاره كان قوياً ، وتختلف مؤلفاته ورسائله عن مؤلفات ماركس اختلافاً جوهرياً . فكانت يغلب عليها النزعة الفلسفية والاتجاه التجريدى ، ولم يكن يملك مقدرة ماركس على التبسط فى الشرح والاستقصاء وتنسيق المعلومات وتدعيم النظريات ، وتبدو فى كتاباته آثار فوضى حياته واضطرابها ، ولذا لم يستطع أن يستوفى فيها بيان مذهبه وتصوير أهدافه وقد قام بهذه المهمة بعده الزعيم الفوضوى الروسى الأمير كروبتكين .